تفاعلات الإنسان والفضاء ،في رواية الكناس للروائي "سليم عبادو".

Interactions of Human and Space in the Novel "El kennes" by the Novelist "Salim Abadou

"نعيم قعر المثرد "*،.

جامعة الوادي (الجزائر)، naimsouf2006@yahoo.fr

تاريخ الاستقبال: 2024/11/01؛ **تاريخ القبول**: 2025/01/31؛ **تاريخ النشر**: 2025/02/10

ملخص: تقارب هذه الدراسة العوالم المتخيلة لمدينة وادي سوف في رواية "الكناس"،حيث سنركز في التحليل على العلاقة التفاعلية بين الشخصيات الروائية والفضاء الجغرافي الذي يحمل بُعدا ثقافيا واجتماعيا.إن تأثير الإنسان الصحراوي السوفي على الفضاء بدا جليا،حيث تعامل مع الأرض القاحلة،وحفر الأرض في شكل "غُوط" ليزرع النخيل،محاولا بذلك إيجاد شكل للحياة في هذا القفر الصحراوي.سلط النص الروائي الضوء على تقاطبات الفضاء الصحراوي والمديني،من خلال شخصية "شيشا" الإشكالية والتي حاولت التكيف في نسيج المدينة الاجتماعي وكذا الثقافي،ولكنها فشلت في التأقلم مع المركز(الحاضرة)؛لأنها جاءت من الهامش المنسي(الصحراء).

الكلمات المفتاح : المجتمع؛ الصحراء ؛ البطل الإشكالي ؛ المُتخيَّل ؛ الفضاء

Abstract: This study approaches the imagined worlds of the city of El Oued in the novel of "Al-Kannas". The analysis will focus on the interactive relationship between the novel's characters and the geographical space, which carries cultural and social dimensions. The impact of the Saharan Soufi man on the space is evident, as he interacts with the barren land by digging in the form of a "ghout" (traditional underground irrigation system) to plant palm trees, thus attempting to create a form of life in this desert wilderness. The novel highlights the dichotomies between desert and urban spaces through the problematic character of "Shisha," who struggles to adapt within the social and cultural fabric of the city but ultimately fails to assimilate into the center (the metropolis) due to her origins from the forgotten periphery (the desert).

Keywords: The community ; The desert ; Problematic hero ; The Imaginary ; Space

* المؤلف المرسل.

I- تمهيد :

ترصد الرواية كمتخيل سردي ،تبني مكوناته الفنية العالم،عبر لغتها الخاصة؛التي تشكلها تقاطبات رؤية الناص للكون بكل تفاعلاته وتناقضاته.فالروائي يكتب الإنسان المتعدد والمتناقض ليغوص في إشكالياته الحضارية ويشكّل لنا عوالم متخيلة في تماهي الشخصيات مع الأفضية المتعدد،التي تعتبر وعاء النص و حاضنته التي من خلالها نقتفي آثار ومآثر الإنسان المتخيَّل في العمل السردي.

تعتبر رواية "الكناس" نص الفضاء بامتياز،فهي تحتفي به وتضفي عليه نفسا ملحميا وعجائبيا،فهي المتن الذي يعيد ترميم علاقتنا بتاريخ أجدادنا وأنفاس الفضاء الذي عاشوا فيه.إنها النص الفسيفساء الذي نعيش فيه مناخات متعددة ومتباينة الدرجات والألوان.

1-لإشكالية:

بعد قراءة فاحصة للمدونة محل الدراسة خلصنا إلى الأسئلة الآتية:

-كيف طوّع الإنسان السوفي الفضاء الصحراوي الميت،وما هي البدائل الأخرى التي صنع بها الحياة لمواجهة العدم؟

- كيف استطاع البطل الإشكالي شيشا تجاوز فكرة المركز والهامش،واستعاد توازنه السيكولوجي والاقتصادي؟

-هل المجتمع البدوي المغلق لم يكتسب ثقافة التقبل التي تمتاز بها المدينة؟

-ماهي الأدور التي لعبها النسق الأنثوي في تأسيس المجتمع السوفي؟

2. الفضاء الصحراوي و المديني:

يمثل الفضاء الصحراوي لوادي سوف في الرواية مصدرا ثريا ومنهلا عامرا بآثار المجتمع،الذي ترك بصمات حضارية تشي بوجود جُهد ذكي في تطويع هذا الفضاء الممتد والممانع لصناعة الحياة والاستقرار.

جاء في وصف منزل بطل الرواية شيشا :" كان منزلنا يقع في إحدى الأزقة الطويلة المتعرجة، وقد بني على طراز أهل قمار في العمارة لأن أحد أخوالي كان بناء وهو من تكفل بذلك، تحت توجيهات جدتي الحاجة الزهرة، فكان الباب الخارجي بحجم كبير مرصع بأشكال حديدية للزينة، وبحلقتين للطرق واحدة كبيرة يستعملها الرجال وأخرى صغيرة تستعملها النساء، ليتبين لمن بالبيت جنس الطارق قبل فتح الباب. وينقسم الباب إلى دفتين تحوي احداهما بابًا صغيرا بحجم قامة إنسان يدعم الباب من الداخل قضيب حديدي متين يثبت بالحائط في ركن السقيفة الداخلية ونُسميه "البلج"" (عبادو، 2023)، يحمل هذا المقطع دلالات ثقافية واجتماعية،حيث أن الإنسان السوفي شكّل فضاء المنزل وفق معتقداته الدينية التي تراعي قيم المجتمع المحافظ،حيث تسود ثقافة الاستئذان والحياء كقيمة فطرية في الإنسان،كما أن فكرة غرفة "السقيفة" التي تأتي في مدخل البيت وتكون منفصلة على بقية البيت حتى تكون للضيف سعة ولأهل البيت راحة وحرمة وهذا يعكس الروح المحافظة للإنسان السوفي .تكشف الرواية عن الدور الاجتماعي البارز الذي قامت به المرأة ، في هندسة البيت ممثلة في شخصية "الحاجة الزهرة" التي قامت على هذه التفاصيل المهمة والتي أُخرجت في أبهى حُلة لنستشف التأثير الحضاري بين المجتمعين" السوفي والقماري" وتأثيراتهما الحضارية المتبادلة في تأثيث الفضاء وصناعة الحياة فيه.

فصّل النص في وصف البيت السوفي من الداخل :"والمنزل من الداخل عبارة عن ساحة كبيرة، غير مبلطة مفروشة برمل الصحراء، الذي يُجدّده جدي من عام لآخر، وغُرف متشابهة تصطف في جانبي الساحة، أبوابها زرقاء بلون البحر، تعلوها قباب، ومطبخ تقليدي وبيت خزين، وساباط يُعطي ظهره إلى الشمس طول النهار وهو عبارة عن فضاء منزلي مسقف بواجهته أقواس، ويُعتبر المكان الجماعي المحوري في الدار، حيث يحتكر أغلب الأنشطة النهارية، وزيادة على كلّ ما سبق بالدار سقيفة صغيرة في مدخلها مباشرة كُنّا نُسمّيها "دار باب الحُوش" (عبادو، 2023). تدخل الرواية في تتبع تفاصيل بناء البيت السوفي ذي الطابع الصحراوي،حيث أن هندسته تتماهى، وتتصالح مع المناخ القاسي والحار للصحراء حيث خرج الأجداد من نسق الخيمة كنتاج صحراوي بدوي ينمُّ عن عدم الاستقرار وحياة الحل والترحال إلى حياة الاستقرار والتثبيت الحضاري،ورغم ذلك فإننا نلتقط علامة الأبواب الزرقاء التي زين بها الإنسان السوفي بيته في دلالة لتعلقه الأسطوري برمزية الماء،الذي يندر في الصحراء ،فـ"معلوم أن العربي إنسان تعلق ببواديته حد النخاع، هذه الطبيعة التي اختزنت قيمة الإنسان في رحلة البحث عن الماء والكلا، لتحييد الموت اللاإرادي / اللااستقرار، أفرغ هذا المنتمي من لواحقه الجغرافية لصالح أخرى راكزة في سماء الإشباع الدلالي.إنها ثقافة الرواء الشمالية الغرب التي حاولت أن تستعيض أسئلة طبيعية بأخرى أسطورية." (تومي، 2023). و "السباط" هو الفضاء الذي يتوسط البيت حيث تعامل الإنسان السوفي في بنائه مع حركة الشمس التي تكون في النهار حارة جدا،فأنشأه مقابلا للجهة الغربية،يمد بظهره للجهة الشرقية،مما يسهل على ساكنة هذا الفضاء العيش فيه وممارسة حياتهم بأكثر أريحية.

تطوّح بنا الرواية لتحط بنا عند البدايات في تعامل الإنسان السوفي مع فضاء الصحراء الممتد:" تضاريس منطقة سوف جدّ قاسية وغير مساعدة على إنشاء حياة بشرية جماعية وتطويرها، لكن السوافة تمكنوا من ذلك ويعيشون إلى الآن بمئات الآلاف، كخلايا النمل في مدن وبساتين حفروها في الكثبان الرملية المترامية الأطراف التي تحيط بهم من كل جانب.ثم يسترسل جدي في الكلام:" تغطي الرمال الأغلبية الساحقة من أرض سوف. وتتشكل الكثبان الرملية أو بفعل الرياح المشبعة بحبات الرمل" (عبادو، 2023).يعكس هذا المقطع مدى تفاني الإنسان في تمهيد هذه الأرض الصحراوية الممانعة،العصية على التطويع،إذ أن الرياح لوحدها عنصر يبطئ من عمل الفرد ويجعله يعود لنقطة الصفر ،فالإنسان السوفي يستعيد أسطورة سيزيف ولكن مع فارق هو أن سيزيف يحمل صخرة ليصعد بها لقمة الجبل والرجل السوفي يرفع قفة السعف على كتفيه ،صاعدا لأعلى الكثيب،ليفرغ حمولة الرمل؛ليهندس الغوط،هذا الهرم المقلوب الذي يعتبر رمز الحياة وبداياتها،عكس الهرم الفرعوني الذي ارتبط بموت الملوك وأكابر القوم.

تبحث الرواية في التفاصيل الدقيقة التي تؤثث البيت فـ"الأسرة التقليدية العريضة التي تُسمى "السّدة"، المصنوعة من عصي الجريد المصفوفة بجانب بعضها، والمرفوعة عن الأرض على دعامات خشبية كانوا يفرشونها قبل مغرب الشمس كي تبرد قليلا قبل استعمالها، بفعل النسيم القليل الذي كان يأتينا في أحر أيام الصيف من الشرق، تحديدا من خليج قابس وتسميه البحري أو الشرقي" (عبادو، 2023).إن تعامل المجتمع السوفي مع خصوصية الفضاء الصحراوي بصناعته لـ"السّدة" هو تواؤم مع طبيعة ذات مناخ قاس حيث أن "السدة" تقي الإنسان النائم من الحشرات السامة وهي تصنع من جريد أشجار النخيل وهذا يدل على استغلال أمثل لكل مكونات الصحراء والاستفادة منه.كما يعكس هذا المقطع فكرة الضمأ للماء والبرد أثناء الصيف وذلك بارتباط المخيال الجمعي بخليج قابس ونسيمه، الذي يعتبر أقرب بحر لمدينة وادي سوف.

يعتبر "الغوط" الضامن الأكبر الذي استمرت بها سلالة المجتمع السوفي،فهو مصدر مهم لعيش الإنسان:" والغوط عبارة عن حفرة كبيرة حفرت وسط كثبان الرمال، حيث كان جدي وأبي يرفعان الرمال من وسطه بواسطة القُفّة التي يحملها الواحد منهما على كتفه، ويصعد بها الكثيب إلى غاية قمته ليفرغها هناك، عمل شاق جدا، كنتُ أتابع عملهما أنذاك وأُشفق عليهما" (عبادو، 2023).يكشف

لنا هذا النص مكابدة الرجل السوفي العمل على صناعة الحياة في قفر يسمى الصحراء،بحثا عن الماء ،ليزرع النخلة التي تعتبر رمزا للحياة والصبر والتثبيت الحضاري،إن التعامل مع الرمل ونقله من أسفل الغوط إلى أعلاه هو أشبه بالتعامل مع فكرة مستحيلة التّحقّق.

اكتسب الإنسان الصحراوي المرونة في العامل مع البيئة والمحيط، فهاهو البطل "شيشا" يقول:"لم أكن أظن أن للفلاحة بالغوط تقنياتها الخاصة التي خبرها جدي ونقلها لوالدي وهو الآن ينقلها لي بتحفظ شديد، فهو يُعلمني ويحثني في نفس الوقت على اتباع التجارة على حساب الفلاحة المضنية في هذا المناخ الصعب وهذه البيئة القاسية، وكأنه يفعل ذلك من باب المثل الشعبي الذي يحلو له كثيرًا أن يُردّده: "تَعَلَّمْ وَاتْرُكْ..." (عبادو، 2023) ،يعتبر الفرد السوفي رجل تجارة ،حيث اكتسب هذه المهنة وأسرارها عن طريق الأجداد،ففي هذا الجزء يبين المتن بأن الجد الذي يرمز للحكمة والبصيرة يعلم حفيده فكرة تعدد مصادر الدخل في مواجهة العدم الذي يسكن الصحراء،فخلاصة الجد بعد عمر طويل هو عدم التعويل كثيرا على الفلاحة المعاشية آنذاك، والتركيز أكثر على التجارة التي تدرّ أموالا كثيرة.

أعتبرت الرواية أنه "عند المرور في السوق متجوّلا تأسرك الروائح الطيبة المنبعثة من المحلات الصغيرة روائح التوابل المنتشرة كبستان متنوّع الألوان والعطور الفواحة، منها التقليدي والصناعي، ولفافات الصوف بألوانها الأخاذة التي اصطفت في المتاجر والأكلة الشعبية بامتياز فيه، دوبارة الحمص أو الفول التي تفنن فيها السوافة عبر السنين حتى أصبحت تجر كل من يدخل السوق من أنفه إليها ولا يتفطن إلا وهو يطلبها بإحدى المحلات مستمتعا.والحضور شبه الدائم لبائع "اللاقمي وهو مشروب محلي يُستخرج من قلب النخل.وما يزيدك أسرا وأنت تنتقل بين المتاجر الصغيرة العتيقة،بطرازها المعماري المتميز وأبوابها المختومة ببصمة أهل سوف" (عبادو، 2023)،يذكرنا الكاتب بمناخات كتاب ألف ليلة وليلة التي تصف أسواق بغداد الساحرة،فالنص أدخلنا عوالم سوق الأعشاش الذي يتوسط المدينة،حيث دخل بنا إلى الخصوصية المحلية التي تطبع المكان،فهاهو مشروب "اللاقمي" الذي يعتبر روح النخلة ودمها،يزين سوق الواد ويشربه أهل المنطقة.في سياق متصل عمرانه تبين لنا الرواية الطابع الهندسي الخاص بمعمار سوف وسوقها العتيق حيث تفنن الفرد في وسم الباب بلمسة محلية صحراوية،لأنه وفق "باسكال ديبي" فإن "الأبواب تتكلم" (ديبي، 2017)،إنها تحتوي على رموز ودلالات تشي بها وتعبر من خلالها عن ثقافة المكان وعبقرية الفرد.إن هذا الفضاء يعكس مجهودات الإنسان في تعمير الأرض ومواجهة الطبيعة الصحراوية وإكراهاتها،وذلك بإنجاز فضاء السوق الذي يجمع كل الناس والطبقات من جميع المشارب.

تسرد لنا الرواية حتمية ارتباط الشخصية السردية مع الأرض وهويتها وروحها،فالرجل السوفي وإن ذهب إلى كبرى المدنيات فإنه يحمل الصحراء بشمسها الحارقة رملها الأسطوري في ذاته وكينونته، فالبطل يروي لعنة الرمل التي تلاحقه حتى في الفضاء المديني:"صرتُ أكنس الشوارع، أدفع **الرمل** بمكنستي، وأتعجب من تصريف الأقدار فلطالما حاول جدي الحاج علي وأبي الحاج بلقاسم إبعادي عن **رفع الرّمل** من غوطنا كما كان يفعل أسلافنا الصناديد، لتضرب لي هذه الأقدار موعدًا آخر مع **الرمل** بعدما تقدمت في السن! هل يُمثل الرّمل إشارة أو سرا حتّى يكون قدرًا يلحق بنا نحن السوافة ولو في مدائن بعيدة عن موطننا سوف؟!" (عبادو، 2023)،انطلاقا من مقولة الروائي الليبي"إبراهيم الكوني" بأن "الصحراء استعارة كبرى"؛فإن الرواية استعملت لغة مجازية واستعارية في علاقة البطل "شيشا" في وصف معاناته بعد أن هجر وادي سوف وذهب إلى العاصمة كعامل نظافة "كناس"،ففي السياق الصحراوي المحلي ،فإن رمزية الرمل هنا تشير للمكابدة والصبر وصناعة الحياة والحفر بحثا عن الماء والحياة الممكنة،أما في السياق المديني فإن الرمل يشير إلى كل ما لفضته المدينة من قيم وموت لشيم القبيلة المتآزة؛ إنها ثقافة البدوي التي تربى عليها البطل ولم يجدها في الحضر.

تعتبر المدينة حاضنة لكل الطبوع والأجناس البشرية وأمزجتها اللونية والثقافية،فهي الفضاء الرحب الذي يجمع ما لا يجمع في أفضية أخرى؛إذ تتميز بالسرعة الفائقة في إيقاعها الإجتماعي واليومي.

لقد اصطدم بطل الرواية بهذا الحيز الجديد الذي فرّ إليه هربا من غربته بين أهله وذويه بعد أن أفلس؛فوقع في غربة أخرى جعلته يصطدم بمحمولات ثقافية واجتماعية معقدة ومتداخلة وكثيفة.

تمثل الأماكن المغلقة للبطل "شيشا" موتا بطيئا،وهو ابن الامتداد والفضاء الرحب اللامتناهي،إذ يقول لجارته التي أرادت أن تُوظّفه في الإدارة،بدل كنس الشوارع "قلت لكِ ألف مرة أنني لا أستطيع تحمل الحبس لساعات في إدارة ومكاتب مغلقة، فأنا في الأصل بدوي من الوادي وأفضل قضاء نهاري تحت الشمس ،والعيش خارج الأماكن المغلقة" (عبادو، 2023). إن رجل الصحراء هو ابن المدى الممتد والاتساع،حيث لا تحدّه حدود ولا تعيقه جدران إسمنتية،ففي هذا المقطع لم تتخلص الشخصية الرئيسة من فضاء الصحراء الذي يسكن ذاتها،فتكون للمكان تأثيرات نفسية،ويتحول الفضاء المديني إلى فضاء معادي لا يستطيع "شيشا" التكيف معه وتقبّله.

تتغوّل المدينة في هذا النص السردي ،لتزيد البطل شيشا اغترابا على اغتراب " فقد صرت أخشى حينها بجدية أن أتحوّل إلى متسول بعد أن كنت تاجِرًا مرموقا في سوق الوادي المدينة التي لا ترحم من سقط، فقد كان الموت عندي أرحم من أن تلوكني ألسن السوافة من بني عمي." (عبادو، 2023) ،تلاحق البطل جراح الذاكرة و المهانة،وكذا الاحساس بعدم الانتماء لكلا البيئتين والحقلين–الجزائر+ وادي سوف– بطل الرواية،إذ نشهد تحولات دراماتيكيا في السلم الاجتماعي لهذه الشخصية؛فتغدو فقيرة بعد أن كانت تمتهن التجارة أبا عن جد.

يرتطم الإنسان الذي يسكن شخصية البطل بنسق المكان وإرتداداته الثقافية المختلفة،ليسرد لنا تفاصيل ما يحدث:"بدأت في ذلك اليوم رحلة البحث عن عمل،حاولت مد علاقات مع الجيران دون فائدة، فقد كان أغلبهم لا يرد حتى تحية السلام علي بعد أن ألقيها، لا أدري ربما خوفا من مظهري الذي لا يتناسب مع ما ترتدي الناس في العاصمة، أو من **لوني الأسمر الداكن**، حتى أنني تعرضت إلى اعتداء في اليوم الأوّل من طرف لص أراد أن يستولي على ما عندي من نقود فدفعني إلى زاوية، وأخرج سكينه ونعتني **"بالباباي" أي الأسود"** (عبادو، 2023)

يحضرنا في هذا السياق قول المتنبي:

وَلَـكِنَّ الفَتـى العَرَبِـيَّ فيهاغَريبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللِسانِ**

تفتح الرواية قضايا متداولة ومسكوت عنها في مجتمعنا،إذ أن خطابات العنصرية بقيت موجودة في أذهان طبقة معينة ،فاللون هنا يؤسس لمركزية مستنسخة بطريقة رديئة عن نظرية الرجل الأبيض ذي العرق الأفضل والأنقى وبمقابلها الرجل الزنجي الذي يمثل الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المروضة تماما" (ابراهيم، 1997) .طرحت الرواية قضية اندماج الهامش في المركز،وكذا تقبّل المدينة للوافدين من العمق الجزائري؛إذ أن الرواية شرّحت موقفا إنسانيا،يبين مدى حذر أهل المدينة وخوفهم من بعضهم؛لأن ارتدادات العشرية السوداء على الفضاء الحضري المديني أكثر منه على الصحراء،حيث أن أغلب المدن الجزائرية تنام باكرا لارتباط الليل بالموت والاغتيال.لقد أحس البطل في الرواية بالضياع في مجتمع لا يحكمه نسق القبيلة،التي يعرف الجميع فيه أصول بعضهم،بل أن الطابع العمراني في المدينة غذّى انزواء الإنسان في عوالمه الفردانية الخاصة والضيقة.إن لون بشرة "شيشا" جنى عليه فكان ضحيته،إذ بدى للص غريبا عن المكان وخصوصيته الثقافية والمورفولوجية،فاختلاف ألوان الناس" وأخلاقهم وطبائعهم ارتباطا باختلاف أحوال الشمس" (كاظم،

2004)،فالساحل المتوسطي، يميل أهله لبياض البشرة وتعدد اللهجات باختلاف الإتجاهات والجنوب الذي تمثله الصحراء يمتاز أغلب أهله بالبشرة السمراء باختلاف تدرجاتها وتمايز منطوقاته التعبيرية والذوقية. وعطفا على الشاهد الروائي،هل التعدد اللوني واللهجي بالنسبة للمجتمع الجزائري هما مصدر ثراء ثقافي وأنثروبولوجي... مثلما استغلته بعض الدول أم هما مصدران لإحياء التعصب للجهة والعرق؟.

من الغايات الحضارية التي وسمت جُل التجمعات البشرية قديما وحديثا،هو خلق نوع من التواؤم بين" ساكنة المدينة الواحدة، وذلك بالتقليل من حدة الفوارق الاجتماعية، ومحاربة كل أشكال التمييز بين ساكنة المدينة نفسها واستحضار مقاربة النوع والجنس وذوي الاحتياجات الخاصة، من ناحية أخرى سياسة المدينة تمنح إمكانيات التصدي لكل ما يمكن أن يعمق النظرة الدونية للهامش" (الهادي، 2020).إن هذا الفضاء الحضري العالي الكثافة من الناحية الديمغرافية والاثنية والذي يبدو مثاليا من الناحية النظرية ،هو ما شرّحته الرواية بمشرطها؛لتكشف لنا أعطابا على مستوى بناء مدينة يفترض أنها تتسم بالتمدن كقيمة إنسانية؛حيث جاء في النص السردي:" كان حي باب الزوار، ككل الأحياء الجديدة بالعواصم والمدن الكبرى، عبارة عن تجمع سكاني غير متجانس، فأغلب قاطنيه جاؤوا من المدن الداخلية، ولا علاقة لهم بتقاليد وأعراف العاصمة التي تجدها بالأحياء العتيقة مثل حي القصبة وباب الوادي. لكنهم كانوا في الغالب يتكلفون في طريقة نطقهم وسلوكهم من أجل إبعاد وصف الدخلاء عنهم. جلّهم يعيش من دون علاقات اجتماعية حقيقية مع جيرانه ومع ساكنة العاصمة، وبقي مرتبطا بمجتمعه البعيد هناك بمدينته الأصلية" (عبادو، 2023)،لقد نجح الإنسان في بناء فضاءات إسمنتية تسمى عمرانيا ب"المدينة" إلا أنه فشل في الأغلب لإنشاء قيم مدينية تضمن الحد الأدنى للتعايش والاندماج.إن الإنسان مركزي بطبعه،حيث أن أناهُ الفردية تجعله يتفرّد بفكرة الأسبقية في كل شيء بما في ذلك ادعاء جميع الوافدين بأنهم هم أهل العاصمة أبا عن جد؛ليتجلى هذا في هوس بعضهم بتقليد اللهجة العاصمية وذلك بإتقان لكنتها،حتى لا يعيش الفرد الآتي إلى المركز ضحية للهامش.يضمر هذا الخطاب دوالا حول تناقض الفرد بين مركزية المدينة المزيفة و هامشية القبيلة التي أتى منها،فالأغلبية تدّعي أفضليتها عن طريق تقديم صورة بصرية وصوتية عن ذواتهم بشكل يوحي أنهم "أولا العاصمة".

3. الشخصيات الروائية:

تعتبر الشخصية الروائية وليدة "مساهمة الأثر السياقي...ووليدة نشاط استذكاري وبناء يقوم به القارئ" (هامون، 2013)،فهي كائن حِبْرِي،تنتجه اللغة بوصفها مخْرجا اجتماعيا،يحقق إنسانية البشر وتفاعلهم فيما بنهم ،كما أن الروائي يستلهم مرجعياتها التخييلية من المجتمع المليء بالنماذج الكثيرة .

إن دور" العمل الفني ليست إعادة نقل العالم بل التعبير عن آمال الإنسان، وقد تقتصر هذه الآمال على مجرد محاولة الهروب من العالم أو قد تبتغي على العكس، تغييراً، يتوقف ذلك على الذات، فهي إما (أنا) فردية ساخطة وعاجزة" (المحاسنة، 2009)،وهذا ما ترجمته البنيوية التكوينية في حديثها عن الوعي القائم (إشكاليات الإنسان وهمومه الحياتية)والوعي الممكن ممثلا في الأحلام والآمال للفرد والجماعة.

-تحولات البطل الإشكالي شيشا:

البطل الإشكالي هو شخصية تحاول التكيف مع بيئتها التي تختلف عنها في القيم والأفكار ،فإذا اعتبرنا أن" الشكل الروائي في الحقيقة على أنه نقل إلى الصعيد الأدبي للحياة اليومية في المجتمع الفرداني وليد الإنتاج من أجل السوق . ويوجد تجانس دقيق بين الشكل الأدبي للرواية ، كما أتينا على تحديده تبعاً للوكاتش وجيرار ، وبين علاقة الناس اليومية مع الأموال عموماً ، ويشكل أوسع ، علاقة الناس مع الناس الآخرين في مجتمع منتج من أجل السوق" (غولدمان، د.ت).

تعتبر شخصية "شيشا ذات بعد المتغير،والتي مرت بتقلبات فرضتها حتميات الحياة المادية التي تقوم في علاقاتها الاجتماعية على البراغماتية،ف "شيشا" الذي كان تاجرا كبيرا ولكنه أفلس فانفض عنه الجميع ؛لأنه بحسب النظرة المادية انتهت صلاحيته ولم يعد مفيدا ليكون مصدر عطاء ومال وجاه اجتماعي،إذ يقول:" متى تنتهي حياة الضنك هذه التي تعيشها؟ إن لم تنته فيجب عليك أن تُنهيها بنفسك. كيف كُنتُ ؟ وكيف أصبحتُ؟ هربت من أهلي السوافة ومن بلدتي وادي سوف إلى هنا لعلّي أنجو من القهر والشماتة، ولكن يبدو أنّ القهر تبعني، والتعاسة تنسج كل يوم من حولي كالعنكبوت وكلّما تحركت محاولا التحرّر التفت علي خيوطها أكثر فأكثر.

ألطف بي يا رب.بدأت دموعي تنهمر دون إذن مني.. وشريط حياتي يمر أمام عيني بتفاصيله الدقيقة." (عبادو، 2023) ،اصطدم البطل بالمدينة وأجوائها المتسارعة والمعقدة، ليخلق حوارا داخليا بينه وذاته المهزومة والمنكسرة.إن ذات البطل في هذا السياق هي شخصية "اللامنتمي" على قول" كولن ولسون"؛إذ أحس "شيشا" أن كل ما يحيط به ضد مساره فالمكان القديم والجديد يرفضانه،والعلاقات الاجتماعية تضع شرطيات مادية مجحفة للتواصل من عدمه؛إذا فالبطل يحس بعدمية الوجود وأن كينونته مهددة لأنها لم تستطع أن تتواصل مع البيئة التي تعيش فيها.

يعود بنا المتن إلى طفولة "شيشا" ،لنطالع مسار تعلمه لفن التجارة:" أول القواعد التي علمني إياها، هي ألا أبيع ولا أشتري سلعا أبدًا في بداية اليوم، قبل أن أستطلع السوق وأعرف أسعار اليوم الجديد.. وكان يقول لي أخطر عملية في التجارة هي الشراء وليس البيع، لأنها هي من تحدد ربحك أو خسارتك وكم من الوقت سيلزمك للبيع وتدوير رأس المال، سعر جيّد أثناء الشّراء يُعطيك هامشا كبيرًا للربح وهامشا أكبر للمناورة وتكسير الأسعار للتخلص من السلعة القديمة وجلب سلعة جديدة، كما كان يُدعم دائما قوله بأمثال شعبية محليّة ليُرسخها في ذهني فيردف قائلا: " تفكر يا الشاري نهار البيع "(عبادو، 2023)،انطلاقا من مقولة العدواني:"العاقل من أدرك خبر غيره"،فالجد "الحاج علي"كان له تأثير كبير في تكوين شخصية "شيشا"التجارية،فهو الأب الروحي في تكوين الإنسان والتاجر المتمرس الذي صار عليه "شيشا" في ما بعد.إن هذه التعاليم والخبرات جاءت أولا من فعل التراكم والتوارث أبا عن جدا لإنسان نحتته الصحراء وجعلته يبذل الجهود المضاعفة حتى يتوقى الجفاف والمجاعات التي تضرب الهامش آنذاك.رغم تعلم البطل هذه المهارات ولكنه كان ضحية وضع اقتصادي غير مستقر آنذاك،إذْ مرّت البلاد بداية بفترة السبعيات التي مثلت الاشتراكية والثمانينيات التي تعتبر نقطة انعطاف في مسار الجزائر الإقتصادي والسياسي لتأتي أزمة التسعينيات،و تأكل الأخضر واليابس وتضع الجزائر في أزمة سياسية وأمنية فيما يسمى بالعشرية السوداء.

إن وضع "الواقع السوسيولوجي كان مغايرا لما كان يعتقده الخطاب الرسمي، بحيث أن المؤسسة الجزائرية التي قامت واستندت إلى مبادئ مقبولة من الناحية الاجتماعية ألا و هي تحقيق الرفاهية لأفراد المجتمع الجزائري" (سبعون و دريوش، 2019)،ولكن الوضع الجيوسياسي آنذاك أدخل "شيشا" في دوامة الكساد والخسارة الكارثية:""تعرضت تجارتي للكساد فلم نعد نعرف من أين نلتفت فجأة وجدنا أنفسنا نحن التجار خارج الحسابات سدت علينا كل الطرق، كان الفكر الاشتراكي قاب قوسين أو أدنى من أن يُكفّرنا أو يأمر الناس بأن تشنقنا في الساحات العامة بتهمة الرأسمالية، إلا أن الكثير منهم سرعان ما بدأ يتذمر من سياسة الحكومة، ويحن إلى الأيام

الخوالي عندما كانت السوق مفتوحة وكل شيء بها متوفر." (عبادو، 2023) ،يطرح هذا الجزء إشكالية اقتصادية عاصفة أحدثت وضعا استثنائيا؛حيث أن التحول إلى الاتجاه الاشتراكي كان وبالا على التاجر "شيشا"،فأصبح عدوا للنظام والمجتمع آنذاك؛ لأنه ينحو منحى رأسمالي يُوصف بالمتوحش،لأن الأسعار تخضع للسوق الدولية من دون دعم الدولة.إن من مضمرات هذا القول هو أنه كانت هناك محاولات لرسم مسار المساواة الإجتماعية والاقتصادية على حساب تحقيق مفهوم العدالة.

تباين إيقاع الرواية وكذا تخييل الشخصية الروائية وتحولاتها،إذ نرى أن الجانب (الفانتستيكي–العجائبي) لشخصية "شيشا" كان بارزا في الرواية،إذْ "إن الشخصية في الرواية الفانتاستيكية تحقق التنوع عن طريق التحول والامتساخ، وتستطيع أن تكون نباتا أو جمادا، كما تستطيع أن تكون روحا لامرئية.." (حليفي، 2009).التقى "شيشا" أثناء عمله كعامل نظافة مع شخصية "بُوكة" التي هي اختصار لكلمة "مبروكة" والتي ارتبطت صفة اسمها في المخيال الشعبي بالبركة والكرامات الخارقة...لقد استغلت الرواية الطاقة التخييلية للذاكرة الشعبية حول هذا الاسم،حيث تظهر هذه الشخصية بقدرات خارقة وعجيبة ؛لتدخل معه في تحد مادي بأن تعطيه الذهب حال فوزه والعكس، وأخلاقي ليساعد الناس من خلال إعطائه الخاتم العجيب الذي حينما يلبسه يختفي ويصبح لا مرئيا ،كما أنه سيمتلك خاصية قراءة أفكار الناس وبواطن أنفسهم ليأتي حوار "بوُكة" مع "شيشا":" ،..تُحاول أن تُساعدهم على حل أهم مشاكلهم للحفاظ على عائلاتهم مُتماسكة، فإن نجحت في ذلك وسأعطيك أنا هذا تكسب الذهب وإن فشلت تخسره، وسأعطيك هذا الخاتم الذي إن لبسته يُجردك من كل الصفات والخصائص المادية، وتصبح أنت عبارة عن روح دون جسد يثقلها، تتحرك كما تريد وأينما تريد، تخترق الحواجز بيسر، فلا الجدران ولا الأبواب المغلقة توقفك، تتسرب كالماء والهواء إلى عقل أى إنسان تُريد تقرأ أفكاره" (عبادو، 2023).طرحت الرواية فكرة جوهرية ،تمثلت في تبئير نوازع الإنسان وعوالمه الداخلية التي تتصارع دائما في موج من التناقضات بينما هو مادي صرف وما هو أخلاقي وأصيل،فالصراع هنا بين ميل "شيشا" الفطري للمال والذهب ورغبته في كسب الرهان،جعله يخرج عن سلم القيم الأخلاقية ولكنه تدارك فداحة فعله واختار الخسارة المادية على تشتيت الأسر أو إحداث شرخ اجتماعي..إن الطاقة العجيبة التي يملكها هذا الخاتم وظفها البطل في إصلاح المجتمع ،حيث واستعارت الرواية تقنية تعدد الأصوات عبر تحول شخصية البطل إلى بُعدين (واقعي–عجائبي)، حيث أن الأخير كان عنصرا فارقا شخصية "شيشا"،حيث أكّد أنه ورغم أن الإنسان الذي يسكن المدينة أناني بالاكتساب،فلا يضيّع القيم الأصيلة التي أتى بها من الهامش ،فالنص يؤمن بقيم الخير التي لن تبرح الأرض ما دام الإنسان موجودا...فالذهب الجقيقي هو في دواخلنا من قيم أصيلة تسكننا في الجينات.

- **الجدة زهرة :**

تعتبر شخصية زهرة شخصية فاعلة في الرواية ونسيجها،إذ أنها توصف بالحكمة والرزانة ودورها القيادي في الأسرة :"أما تدبير المنزل فقد كان يقع على عاتق جدتي الحاجة الزهرة ...لكن القيادة الفعلية في البيت تعود إلى جدي الذي رغم ذلك لا يتدخل في أي شيء من الشؤون الداخلية للمنزل علنا، وحتى وإن طلب منه ذلك فهو يرجع الأمر إلى جدتي كي تأخذ هي القرار وكان يُعجبها ذلك، .. "(عبادو، 2023)،لتأتي الرواية في مقطع آخر وتؤكد الدور المحوري الذي تلعبه الجدة الزهرة،ليأتي في هذا السياق:"فمرض بعدها بثلاثة أشهر وهو يردد:"هلكتُ يوم هلكت الزهرة. فقد كانت تمثل عنده كل شيء، هي الحنان الذي يشحن منه روحه لمواجهة الحياة، وهي الرفيق الصارم الذي يُنظم له الحياة في البيت ويفرض على الجميع احترامه وهي الصاحب الذي يشتكي له عثراته وصدماته وخذلانه، فيُمدّه بالقوة، وهي الوزير المشير له بالرأي عندما تتعقد عليه الأمور ويصعب القرار. توفي جدي الحاج علي بعدها في يوم جمعة.." (عبادو، 2023) ،تمثل الحاجة تلك السلطة الناعمة التي تؤثث البيت بحضوره الأنثوي الرصين ورأيها السديد أثناء المشورة،فهي السند الذي لا

يخيب للجد "علي" والجدار الصلب الذي يتكئ عليه من تعب الحياة وعواضلها،والصديق الكتوم الوفي الذي يبلسم الجراح."الزهرة" هي الأنثى التي تمثل الحياة؛فبموتها التحقت بها روح الجد الذي كان وفيا ولم يعد على الأرض بعدها شيئا يستحق الحياة.

4- ثقافة التقبل في المجتمع السوفي/نموذج –وردة وشيشا– :

مثلت شخصية"وردة" الزوجة المخلصة ،الوفية لشيشا،الذي مرّ بهزات عنيفة كادت تودي بمستقبله ،حيث حمت عائلتها من التشتت وكان له دور أمومي إيجابي على ابنيها؛خاصة مع انتقالهما من فضاء صحراوي(الوادي) إلى فضاء مديني (الجزائر العاصمة)،ولكن الرواية مرّرت من خلالها دلالات ومضمرات ثقافية وذلك في قول النص:" .. قُمنا برحلة حجّ سويا...وسلكت منذ عودتنا طريقًا صوفيًا بامتياز، تقفّيًا لآثار والدها الحاج البشير الذي كان من كبار الطريقة التجانية بمدينة قمار...صارت المسبحة لا تُفارق يديها من أجل الذكر. أما أنا، فقد كُنتُ قادِريًا، من مريدي الزاوية القادرية بالوادي أتبع الشيخ عبد القادر الجيلاني "(عبادو، 2023)،يعكس هذا المقطع مدى التعايش الجميل الذي حدث ويحدث في نسيج المجتمع السوفي وتعدد انتماءاته ومرجعياته الدينية؛إذ أن ثقافة التسامح والتعايش وكذا التقبل هي السائدة،فالرواية تضيء مساحات جميلة للتواؤم الديني،حيث جمعت علاقات مصاهرة بين تيارين صوفيين (الزاوية التجانية والزاوية القادرية)مهمين في النسيج الجغرافي والاجتماعي وكذا الثقافي للمنطقة.أراد النص تبيين انتشار الطرق الصوفية ؛للتجاور وتتحاور فيما بينها.

5- تعدد الثقافات في الجغرافيا الواحدة:

تجمع الوادي العديد من المناطق التي تختلف عن بعضها في النطق أو اللون والعادات والتقاليد.ركزت الرواية على الوادي وقمار،باعتبار أنهما مختلفتان في الكثير من الجوانب.

يأتي هذا النقاش بين أهل الواد وقمار بحكم أن "شيشا" ينتمي من جهة الخؤولة والعمومة للثقافتين:" فناس قمار يُفسرون هدوءهم بالحكمة والتعقل وأن دور المرأة مهم في المجتمع حيث كانوا من الأوائل في المنطقة الذين حرصوا على تعليم البنات وإعطائهن حظ الذكور دون انتقاص، ويرى أهلي في الوادي أنّهم يملكون شخصية قوية وإقدامًا وجرأة على صعاب الحياة، بحكم ماضيهم البدوي الذي يفرض المغامرة وتحدي الأخطار المحدقة بهم من كل جانب في الصحاري.." (عبادو، 2023).إن هذا الجزء يبين مميزات تكوين شيشا الإنساني والثقافي،حيث تنوعت مصادر نشأته..وبهذا تطرح الرواية خصوصية كل مجتمع،وذلك وفق عوامل تاريخية لها علاقة بالتمدن و البداوة،فالمرأة عند"القمارية"شخصية لها استقلاليتها،ودليل ذلك أن العائلة تشجع البنات على الذهاب للدراسة وطلب العلم؛أما "السوافة" فالطابع البدوي الرحلي الذي يسكنهم جعلهم على قدر من الجرأة والصلابة في مجابهة الحياة الصحراوية القاسية والعنيدة.

الخلاصة:

نستخلص مما سبق أن الرواية ركّزت في اشتغالها السردي على الفضاء المديني والريفي مبينة الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لكل منهما وذلك من منظور الشخصية الرئيسة "شيشا"...هذا المكون الإنساني الذي كان فاعلا ومتفاعلا في نسيج الرواية،حيث ركزت هذه الأخيرة على التحولات الوظيفية والإنسانية والاقتصادية التي مر بها–شيشا– وبالجزائر من أزمات وهزات.

احتفت الرواية بالتراث المحلي الصحراوي لوادي سوف وجعلته مادة سردية، كما أبرزت مكوناته الجغرافية والثقافية ممثلة في "الغوط"،والسوق كفضائين لصناعة الحياة؛فالأول عنصر للتثبيت الحضاري والثاني للتبادل التجاري والثقافي.

أبرزت الرواية دور المرأة ممثلا في "الحاجة الزهرة"، التي تعتبر رمزا للسلطة الناعمة،بحكمتها ومرافقتها للرجل السوفي الذي يحتاج للسند والمؤازرة.كما تكرر هذا النموذج في شخصية "وردة"، التي كانت السند القوي في كل الحالات لزوجها "شيشا"،كما أن الزوجة هنا مرّرت من خلالها الرواية دلالات ثقافية وحضارية، من خلال علاقة المصاهرة بين توجهين (التجانية والقادرية).

- **–الإحالات والمراجع:**

- اليامين ين تومي. (2023). *تشريح العواضل البنيوية والتاريخية للعقل النقدي العربي–دراسة في الأنساق الثقافية العربية الكلية والجزئية*. الجزائر: دار الألمعية للنشر والإشهار،ص317.
- باسكال ديبي. (2017). *الباب –مقاربة إثنولوجية–* (المجلد 1). البحرين: هيئة البحرين للثقافة والآثار،ص17.
- بووشمة الهادي. (سبتمبر، 2020). سياسة المدينة بالجزائر: الواقع والرهان–مقاربة سوسيولوجية. *مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع*، ص 41. https://www.asjp.cerist.dz/en/article/159949.(زيارة 2024/10/31)
- سعيد سبعون، و وداد دريوش. (2019). المؤسسة الجزائرية من السبعينيات إلى المرحلة الحالية: الكرونولوجيا والسوسيولوجيا. *مجلة التنمية وإدارة الموارد البشرية–بحوث ودراسات*،، صفحة 79.https://www.asjp.cerist.dz/en/article/94536 (زيارة 2024/10/31)
- سليم عبادو . (2023). *الكناس*. الجزائر: خيال للنشر والترجمة ص28–220.
- شرحبيل المحاسنة. (2009). الشخصية الروائية في ضوء المنهج الاجتماعي والنفسي و البنيوي. *مجلة كلية الآداب بقنا*،ص107. https://journals.ekb.eg/article_114079.html(زيارة 2024/10/31)
- شعيب حليفي. (2009). *شعرية الرواية الفانتاستيكية*. الجزائر: منشورات اختلاف،ص202.
- عبد الله ابراهيم. (1997). *المركزية الغربية –إشكالية التكون والتمركز حول الذات–*. المغرب: المركز الثقافي العربي،ص258.
- فليب هامون. (2013). *سيميولوجيا الشخصيات الروائية* (المجلد 1). سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع،ص39.40.
- لوسيان غولدمان. (د.ت). *مقدمات في سوسيولوجيا الرواية*. (بدر الدين عردوكي، المترجمون) سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.ص23.
- نادر كاظم. (2004). *تمثيلات الآخر–صورة السود في المتخيل العربي والوسيط–*. مملكة البحرين: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ص237.